تجربــة حيّــة

لبّيت دعوة إحدى صديقات العائلة إلى أمسية تجمع فيها صديقاتها المقربات ، و هناك عندما عرفتني عليهن شكرت الصدفة التي جمعتني بسيدة طالما كنت أود التعرف عليها . فقد سمعت عنها الكثير و قرأت في أيام شبابي الأول الكثير مما كتبت في مجلة المدرسة . تحمست للحديث معها و مناقشتها فكان لي ما أردت لأن زيارتنا لم تكن كغيرها من الزيارات الفارغة إلاّ من أحاديث الموضة و الطعام و الجيران بل كانت الأحاديث من أروع ما يكون .. تناولت مواضيع شتى سرَّ بها الجميع و اشترك بها .. إلاّ أن سؤالا واحداً كان يغلي في داخلي لم تسمح لي المناسبة طرحه عليها لذلك حرصت على أخذ موعد آخر منها لمتابعة المناقشة .. و كان ذلك في اليوم التالي في منزلها .

إنها مدرسة ناجحة جداً ، عتيقة الأمد بالتربية .. لطالما كتبت لنا ما ساعدنا أيام المراهقة ، أفكارها متحفظة متحررة ، تقنع الكبير و تساعد الشاب أذكر الكثيرات من صديقاتي اللواتي تأثرن بمعاملتها لهن و تبعن نصائحها لقد كانت في نظر الكثيرات منا أماً مثالية و مربية فاضلة .. فلماذا فجأة تركت كل شيء .. تخلت عن الكتابة ، عن المدرسة . و انزوت في منزلها كمن لا حيلة له هاربة من شيء ما لم يستطع أحد معرفته ، و كم حاولت عندما عدت إلى مدرستي و صرت مدّرسة فيها أن أعرف أحد الأسباب علّني أقنعها بالعدول عنه لكن أحدا لم يعطني عنوانها ، تهّرب الجميع من الإجابة فابتعدتُ بدوري خوفاً من تدخل يسيء إلى إنسانة لا أحب لها إلا كل الخير .

استقبلتني بالتأهيل و جلسنا نتحدث عن أيام التدريس و مشاكل التلاميذ و قالت لي :
- لا اذكر أنك كنت من تلميذاتي فأنل لا أنساهن أبداً .
- فعلاً لم يساعدني الحظ لأصل إلى الصف الذي كنت تدرسين مواده و كم وددت ذلك لكنك ابتعدت قبل أن يصلني الدور .
و بعد أن تخرجت من الجامعة عدت إلى المدرسة و أصبحت مدرسة فيها و كم تمنيت أن أكون زميلة لك أستفيد من خبرتك لكنك أيضاً كنت بعيدة فلمَ ؟؟ .

و تهربت من الإجابة .. كلما وجدت منفذاً أتسلل منه لمعاودة السؤال تسد المنافذ و تموه الأحاديث .. خفت الغوص في الأعماق فأنا لا أعرف بُعد المدى .. ارتأيت التقرب أكثر . تبادلنا زيارات عديدة مع الأصدقاء و بدونهم .. كنت يوماً بعد يوم ألمس الكلمات التي قرأتها قديما .. جلسة بعد جلسة أستشف الآراء التي ساعدتنا يوماً .. و بدأت تنمو بيننا مودة و صداقة عقدت معها العزم على السؤال و الإصرار ..

هيأت لذلك جلسة صباحية هادئة في يوم عطلة .. و كنت قد نبشت قبلها أوراقي القديمة بحثاً عن قصاصات من كتاباتها كنت أحتفظ بها فرتبتها ووضعتها على الطاولة مقابل مكان جلوسها .. ووصلت في موعدها الذي لا تتأخر عنه أبداً .. توجهت إلى مكانها الذي لا تحب تبديله .. و رأت القصاصات أمامها ..

ذهلت فهي لم تتوقع أن يتذكر أحد ما كتبت .. و قبل أن تسألني شيئاً بادرتها فوراً بالسؤال .. لم أماطل .. و لم أبحث عن كلمات منمقة .

مرت سحابة حزن أمام عينيها و كأنها بها تذكرت أياماً سوداء تعتصر بالحزن و أجابت :

يا إبنتي لأول مرة سأتكلم .. عندما فضلت الابتعاد حاول الجميع معرفة السبب لكني صمت .. لأن الصمت حينها كان دوائي الوحيد لكني اليوم أحس بك ابنة قريبة إلى قلبي .. أختاً صغيرة أفتح لها الأبواب التي أغلقتها منذ زمن . شربت قليلاً من العصير و أضافت : لي أخت في مثل سنك .. و بما أنني كنت أكبرها بأعوام كثيرة كنت أنا المسؤولة عن تربيتها بعد وفاة والدي .. و قد أعطيتها كل ما في قلبي من حب و خبرة ووعي .. فنشأت فتاة رائعة تتمناها كل أم .. إلاّ أن أمي « رحمة الله عليها » كانت ترى فيها فتاة متحررة أكثر مما يجب .. و لطالما اختلفنا على أسلوب تربيتها و كانت تلك المشكلة تقلقنا معاً و لم تستطع أمي أن تفهم أن اختلاف الأجيال لا بد أن يتبعه اختلاف في المفاهيم و طريقة تقبل الأفكار .. خاصة في هذا الزمان الذي يجري ليسابق الريح . و كنت دائماً أحميها مقتنعة بأفكاري .. إلى أن كانت المشكلة الكبرى بالنسبة لامي ..

أشعلت السيجارة اليتيمة التي تحب تدخينها صباحاً و أكملت بشيء من الأسى .

أحبت أختي شاباً و أرادت أن تتزوج منه .. كانت في السابعة عشرة من عمرها لكنها بنضوج ابنة العشرين و أكثر . قابلت الشاب و اقتنعت بنضوجه و سعة أفقه و حماسه و حبه لها .. و باركت زواجهما لكن أمي وجدت في ذلك تهوراً مني ووضعت عقبات كثيرة في طريق زواجها .. حاولت إقناعها بشتى الأساليب لكنها رفضت رفضاً قاطعاً و كنت أعلم أنّ بداخلها سبباً واحداً و هو كيف تتزوج الصغرى قبل الكبرى و كيف لي أن أجعلها تنتظرني و أنا لم أقابل الشخص الذي أقتنع به ..

فما كان من أختي إلاّ أن تزوجت و رحلت إلى بلاد بعيدة و قطعت أخبارها مدة .. حينها انهارت والدتي و لم تتحمل ذلك و حملتني المسؤولية .. و بعد فترة رحلت نهائيا عن الدنيا .. يومها اعتبرت نفسي المذنبة الفاشلة .. لم أعد أستطع مواجهة أحد .. صرت أخاف الحديث و المناقشة و تساءلت كثيراً ترى لو لم أشجع أختي على اختيار طريقها .. لو لم أزرع في نفسها تلك الأفكار .. لو تركت لأمي حرية تربيتها .. لو وافقت على ذلك العريس الغني الذي استبدلته أمي بحبيبها .. لو .. لو .. أسئلة كثيرة حيرتني .. فانهرت و ابتعدت ابتعدت عن كل شيء علني أنسى فقد رحل عني أعز اثنين لي في الدنيا .

قلت لها : أنا آسفة ربما لا تريدين متابعة الكلام .. لم أعرف أنني كنت سأسبب لك هذه الآلام بنبش الماضي .. أجابتني و قد استعادت هدؤوها : دعيني أكمل .. الأيام كانت كفيلة بلأم الجروح و رأب الصد وع لكني لم أعد قادرة على مواجهة التلميذات و الكلام معهن .. ففضلت حياة هادئة بعيدة .. ووجدت لنفسي عملاً هادئاً جديداً بعيداً عن التربية ..

و كانت الكلمات القليلة التي تصلني من أختي تطمئنني عنها و تخبرني عن نجاحها في حياتها تعزيني إلا أنني كنت دائما أتساءل ... تراها تقول لي ذلك لتطمئنني أم هي الحقيقة ؟؟ و لم أستطع التأكد فموطن زوجها بعيد .. و ليس لي إلى هناك سبيلاً .. و بقيت مذنبة في نظر نفسي و أكثر من حولي .

بكثير من الأسف و الحيرة سألتها : كنت أقوى بكثير .. فكيف تعتبرين هذا ذنباً و سقوطاً .. هل نسيت المشاكل التي حللتها ، الكثيرات اللواتي أنقذتهن من الضياع ، الكثيرات اللواتي أقنعت أهلهن بمتابعة الدراسة نسيت الكثيرات اللواتي أعدت إليهن الثقة بالنفس بعد شتات من مشاكل البيوت . نسيت كل هذا .. لا أنكر أن صدمتك شديدة و تجربتك قاسية لكن الهروب ليس حلاً و الانهيار ليس النهاية .. هذا ما كنت ترددينه باستمرار لو أن والدتك تحملت الصدمة و كانت أقوى لفهمت اليوم .. و لكانت الأيام كفيلة أن تفسر لها معنى التطور و التزمت .

لا أنسى مقالاً قرأته لك بعنوان النجاح .. ربما هو هنا بين أوراقي .. فقد قلت إن التطور و الجديد يجب أن ينتصر على القديم لا أن يقتله .. و الانتصار لا يكون إلاّ إذا كان الجيد أفضل و أقوى و أحسن .. و دعوتنا يومها إلى البحث عن ذلك الجديد و ذلك التطور لننتصر على القديم فأين أنت من كلامك ذاك .

رشفت رشفة من فنجان الشاي الذي بين يديها و قالت لكأن الله أرسلك لي شحنة ثقة نشاط و تجدد .. لطالما أمسكت المجلات التي كتبت فيها و قرأت ما كتبت علّها تعيد إليَّ شيئاً من نفسي .. علّها تعيد إلى يدي القلم لكن جهودي باءت بالفشل . الأسبوع الماضي زارتني مديرة المدرسة و طلبت مني العودة لأنهم بحاجة إلى مرشدة اجتماعية و ترددت كثيراً و ها أنت اليوم خيط الأمل يلوح لي لأركض نحوه .. كم أشكر العناية الإلهية التي جمعتني بك و شجعتك على سؤالك .

ودّعتها على أمل اللقاء في المدرسة كزميلات و التقينا و عادت إليها اشراقتها و حققت أملي في أن أكون إلى جانبها أرتشف من خبرتها .

حتى جاءتني يوماً مسرعة و في يدها رسالة و قالت لي بكثير من الفرح : هذه من أختي ستأتي الأسبوع المقبل لتمضي إجازتها هنا مع زوجها و أولادها.